

الفصل الثاني

التفكير.. معناه وأنواعه

obeykahn.com

معنى التفكير:

"التفكير" لغةً هو "إعمال الخاطر فى الشيء"⁽¹⁾، أو هو إعمال العقل فى مشكلة للتوصل إلى حلها⁽²⁾. وفى حديثنا اليومى نستخدم كلمة "تفكير" Thinking بمعنى عام جداً يشمل أنواعاً كثيرة من النشاط العقلى. فقد تقول مثلاً لزميلك: "إننى أفكر فى أن أقضى الليلة فى قراءة كتاب معين"، وقد ترى زميلك يفكر فى أمر فتسأله: "فيما تفكر؟"، فيقول لك: "إننى أفكر فى قصة فيلم شاهدته أمس". وقد يشرّد ذهنك أحياناً فى كثير من الأمور التى تتعلق بخبراتك السابقة، أو بأمانيك فى المستقبل، وإذا سئلت عما يشغل بالك، فقد تجيب بأنك كنت تفكر فى بعض أمور حياتك الخاصة. كما أننا نستخدم كلمة التفكير أيضاً حينما نقوم بحل مسألة حسابية أو هندسية، أو حينما تعترضنا مشكلة ما فنفكر فى طريقة لحل هذه المشكلة. وكذلك نقول عن العالم والمخترع والفنان والشاعر والكاتب والرّسام والنحات والموسيقى، حينما يستغرقون فى أعمالهم العلمية أو الابتكارية أو الفنية، إنهم يفكرون .

التفكير بمعناه العام، إذن، هو كل نشاط عقلى أدواته الرموز، أى يستعيز عن الأشياء والأشخاص والمواقف والأحداث برموزها بدلاً من معالجتها معالجة فعلية واقعية. ويُقصد بالرمز من كل ما ينوب عن الشيء أو يشير إليه أو يعبر عنه أو يحل محله فى غيابه . فالمهندس المعماري الذى يقوم بتصميم بناء ما يضع تصميمه مراعيًا كثيراً من الاعتبارات الواقعية مثل مساحة الأرض، وحجم البناء، ومقدار ارتفاعه ، وعدد الطوابق التى يتكون منها البناء، وعدد الحجرات فى كل طابق، وعلاقتها بعضها ببعض، وأنواع المواد التى ستستخدم فى البناء وكمياتها،... وهكذا. إن المهندس المعماري يفكر فى كل هذه الأشياء باستخدام رموزها فقط⁽³⁾.

إن الرموز التي يستخدمها الإنسان في التفكير كثيرة، وهي تتضمن الصور الذهنية، والمفاهيم، والكلمات، والأرقام، والإيماءات، والذكريات، وكذلك الخرائط الجغرافية والعلامات الموسيقية والصيغ الرياضية. وقد يحدث التفكير أحياناً بمعالج الرموز ذهنياً بدون وجود منبه خارجي معين يثير فينا التفكير، كما يحدث مثلاً حينما يفكر الإنسان في وضع خطة رحلة يود أن يقوم بها في عطلة نهاية الأسبوع. وقد يحدث التفكير أحياناً أخرى نتيجة إدراك موقف معين. فقد يرى الطالب كتاباً على مكتبه، فيتذكر أنه استعاره من زميله منذ مدة طويلة فيفكر أنه من الواجب عليه أن يزور صديقه اليوم ليعيد إليه الكتاب.

وكما يتضمن التفكير الإداري الحسى، فإنه يتضمن أيضاً التعلم. فالتفكير، من جهة، يعتمد على خبراتنا التي تعلمناها سابقاً، أى يعتمد على التعلم والتذكر. كما أننا، من جهة أخرى، نقوم أثناء عملية التفكير بتنظيم معلوماتنا السابقة بطرق جديدة بحيث نتعلم من ذلك أشياء جديدة لم يسبق أن تعلمناها من قبل. ويُلاحظ ذلك بوضوح في حل المشكلات وفي التفكير المبدع. فالمفكرون المبدعون والمخترعون يقومون بتنظيم معلوماتهم السابقة بطريقة جديدة بحيث يكتشفون علاقات جديدة أو يخترعون أشياء جديدة لم تُعرف من قبل .

أما التفكير بمعناه الخاص فيقتصر على حل المشكلات حلاً ذهنياً. والمشكلة التي يقوم التفكير بإيجاد حل لها تعنى كل عائق يعوق النشاط الإنسانى بمختلف صورته، ونحن حين نتغلب على العوائق بالتفكير نكون بذلك قد قمنا بحل المشكلة. والتفكير سلوك معقد جداً، وهو يدخل في كل نشاط آخر يقوم به الإنسان. ومع أننا كثيراً ما نفكر بدون أن نقوم بأى نشاط، إلا أن كثيراً من تفكيرنا يحدث أيضاً أثناء المعالجة الفعلية للأشياء. فالنجار الذى يقوم بصنع أثاث غرفة، مثلاً، فإنه لا يقوم بنشر قطع الخشب وتركيبها بطريقة عشوائية، وإنما هو يفكر فى أثناء عمله فى تصميم معين يريد تنفيذه⁽⁴⁾ .

التفكير ، إذن، هو أعلى شكل من أشكال النشاط العقلي لدى الإنسان، فهو العملية التي ينظم بها العقل خبراته بطريقة جديدة، كحل مشكلة معينة أو إدراك علاقة جديدة بين أمرين أو عدة أمور. وينتمى التفكير بذلك إلى أعلى مستويات التنظيم المعرفي، وهو مستوى إدراك العلاقات. فالتفكير ليس إلا اسماً متعارف عليه لمجموعة معقدة من العمليات العقلية، نتعرف بها على العالم ونتعلم كيف نستدل على طريقنا فيه، وكيف نلائم بين أنفسنا وبين قوانين البيئة التي نوجد فيها. وهذه البيئة يوجد فيها الإنسان ثم يصنعها أو يغيرها. فرغبته في السيطرة على قوى الطبيعة هي أكبر محرض على التفكير⁽⁵⁾.

ويختلف التفكير عن التذكر في أن الأخير هو العملية التي يتم بها استرجاع الخبرات الماضية، أما التفكير فإنه يذهب إلى أبعد من مجرد استرجاع هذه الخبرات، إذ إنه يعيد تنظيم هذه الخبرات في كل جديد يناسب الموقف الذي يواجهه الفرد⁽⁶⁾.

ولما كان التفكير يتم باستخدام الرموز، فقد أصبح ذا أهمية كبيرة في حياة الإنسان، وأصبح من أهم الوسائل التي يستعين بها في عملية التوافق في حياته اليومية. فالتفكير يتحرر الإنسان من قيود الزمان والمكان، فهو يستطيع أن يعالج بطريقة رمزية الأشياء البعيدة والغائبة، والأشياء والأحداث التي حدثت في الماضي، كما يتبأ بالأشياء والأحداث التي يمكن أن تقع في المستقبل.

ونحن عندما نستخدم كلمة «تفكير» هنا، إنما نستخدمها بمعنى أعمال العقل بقصد تحقيق هدف معين، أعنى التفكير من أجل حل مشكلة ما. وبالطبع قبل إمكان إنعاش هذا النوع من التفكير، يجب أن نحرك الرغبة فيه، يجب أن نحرك الرغبة في التفكير من أجل التفكير نفسه.

ولكن مجرد الرغبة في التفكير لا تكفى رغم استحقاقها الثناء في حد

ذاتها، بل يجب أن نعرف أولاً كيف نفكر، ولتحقيق هذا الغرض يجب أن نبحث عن القواعد، وطرق الممارسة التي ستساعدنا في التفكير بابتكار وأصالة إلى أقصى حد، أو على الأقل بدقة تامة⁽⁷⁾.

نقص المعرفة البشرية ومحدوديتها :

والواقع أن كل تفكير يبدأ وهو مشوب بالحيرة والتردد والشك ، لأن عملية التفكير هي - كما سبق أن ذكرنا - عملية حل مشكلة، والفرصة الملائمة للتفكير هي دائماً هدف صعب التحقيق. ومن الضروري أن نضع هذا نصب أعيننا، لأنه إذا قيض للإنسان أن يعرف كل شيء، فإنه لن يتمكن، إذن، من التفكير، فسوف لا يحيره شيء على الإطلاق، ولن يعاني من الحيرة والشك، ولن تعترض المشكلات طريقه. وإذا تصورنا الله سبحانه بوصف معرفته كلية وعلمه شاملاً، فإننا لا نتصوره إذن كائن يعاني التفكير، فالتفكير إذن عملية تنفرد بها الكائنات ذات الذكاء المحدود⁽⁸⁾.

ليس في وسع الإنسان، إذن، معرفة كل شيء، الله وحده سبحانه الذي يحيط بعلمه كل شيء، ولا تخفى عنه خافية. هل في وسع الإنسان الإجابة عن كل سؤال يتعلق بشيء ما يظن أن معرفته به تامة؟ هل يمكنه الإجابة عن كل سؤال يتعلق بالسيارة التي يركبها، أو يتعلق بحبات الرمل التي يسير عليها، أو بالقلم الرصاص الذي كتب به، أو بالكائنات البشرية التي ينتمي إليها؟

هب أنك أردت أن تكرر حياتك كلها لدراسة قلم رصاص واحد. هل في وسعك فعلاً معرفة كل شيء عنه؟ يمكن الآن أن تلتقط قلم رصاص لونه أصفر فاتح، وله ممحاة (أستيكة) مطاطية، أجلس وحاول وصفه وصفاً شاملاً بقدر الإمكان. صف مقاساته المضبوطة، وأخبرنا بكل ما يمكنك إخبارنا به عن تركيبته واستعمالاته. ولكن لكي تعرف كل ما يتعلق بالقلم الرصاص، عليك أن تعرف كل

شئ عن الخشب، وعن تلك الشجرة التى صنع منها هذا القلم. أنت فى حاجة لمعرفة كل المعلومات المتعلقة بالمطاط الذى صنعت منه המחاة. ويجب ألا تتسى المعدن الذى صنع منه الممسك بالمحاة فى نهاية القلم. أنك تحتاج لمعرفة كل شئ عن الرصاص، والصمغ، والألوان الزيتية التى تم بها طلاء القلم، وكذلك الحروف الذهبية المكتوبة أو المحفورة على القلم⁽⁹⁾.

واستمراراً فى محاولتك الجيدة هذه لدراسة القلم الرصاص ومعرفة كل شئ عنه، عليك بعد عدة سنوات من دراسة القلم من الخارج، عليك أن تبدأ بتفكيكه كى تفحص تفاصيل الأجزاء الداخلية لهذا القلم الذى بين يديك. أنت تحتاج إلى تقسيمه، كما تحتاج إلا آلاف من الشرائح المجهرية التى تساعدك على الإحاطة بمعرفة كل الألياف الخشبية وحببيات الرصاص الأسود التى يتكون منها القلم. وبعد أن تفرغ من هذا الفحص المجهرى، عليك أن تشرع بعد ذلك فى دراسة التركيب الذرى للقلم. إن مثل هذا القلم يحتوى على ملايين بل على بلايين الذرات التى تحتاج دراستها على آلاف السنوات . معنى ذلك أنك قد تقضى حياتك كلها فى دراسة القلم، وفى النهاية لا تستطيع أن تعرف عنه كل شئ⁽¹⁰⁾.

لحسن حظنا نحن البشر أنه يمكننا تدبير أمورنا فى هذا العالم دون امتلاكنا للمعرفة الكاملة عن أى شئ فيه. فالميكانيكى لا يعرف كل شئ عن السيارة، لكنه يملك قدراً جيداً من المعرفة يُمكنه من إبقاء السيارة تركز بسرعة جيدة جداً، والأطباء لا يعرفون كل شئ عن الجسم البشرى، ولكنهم أصبحوا أكفاء فى معالجة العديد من أمراضنا. ولا يوجد شخص يعرف كل شئ عن فن الطبخ، لكن هناك الكثير من الطباخين المهرة الذين يجيدون الطبخ بقدر يتلاءم مع ما نملكه من مال.

إن إقرار المرء بحقيقة إننا لا نعرف كل المعلومات المتعلقة بشئ معين، إنما

يُمْكِنُ من اكتساب عادات تعبر عن ذهن منفتح. فعلى سبيل المثال، إذا عرفت كل المعلومات المتعلقة بشيء ما، فلن يكون لامتلاكك ذهن منفتح أى معنى، ولن تكون بك حاجة للاستماع إلى أى شخص يخبرك أو يلفت نظرك لمعلومة تتعلق بهذا الشيء. فلن يكون هناك - بالنسبة لك - جديد تحت الشمس. وكل ما تريده سوف يتحقق على أكمل وجه وفقاً لما خُطِّطَ له، لأنك تملك معرفة تامة. أن تعرف كل شيء هذا معناه أن الماضى والمستقبل سيكونا ماثلين أمام ناظريك كالحاضر تماماً. وكان من حَقِّك فى هذه الحالة أن ترفض الاستماع إلى كل ما يقوله الآخرون (11).

جميعنا سمعنا عن زهمية وضرورة أن نمتلك أذهاناً منفتحة. لكن نادراً ما يقال لنا كيف يتم ذلك. إن السبيل لامتلاك ذهن منفتح والاحتفاظ به على هذا النحو، هو أن أقول لنفسى مررداً إنه: "لا يمكننى معرفة كل ما يتعلق بأى شيء، ولا أحد غيرى يمكنه ذلك أيضاً، ومن ثمَّ ليس من حَقِّى إغلاق عقلى. بل يجب علىَّ رصد الوقائع الهامة التى لم يتم فحصها من قبل. إذ إن بعض العوامل الخفية التى قد تكون موجودة يمكنها أن تساعد فى ازدياد حصيلتى المعرفية" (12).

مستويات التفكير:

المستوى الحسى:

يتعذر التفكير أو يستحيل أحياناً إذا لم يعتمد على موضوعات وأشياء ماثلة أمام حواس الفرد ومؤثرة فيها، كما هو الحال عند الطفل الصغير والحيوان. فقدرة كل منهما على التفكير فى الأشياء فى غيبتها محدودة جداً. فالطفل إذا اعترضته مشكلة لجأ فى حلها إلى طريقة المحاولة والخطأ الحسية الحركية، لأن هذه الطريقة تقوم على المعالجة الفعلية لا الذهنية للموقف، وتستهدى بما يزوده الإدراك المباشر لخصائصه. والتفكير فى مستوى الإدراك

الحسى يدور حول أشياء ومعان حسية لا حول صفات ومعانى مجردة، فهو تفكير يوجه الإدراك الحسى.

المستوى التصورى:

فيه يستعين التفكير بالصور الحسية المختلفة، والتفكير بالصور أكثر شيوعاً عند الأطفال منه عند الكبار من حيث مقداره ووضوح الصور، ويمكن القول بأن تفكير الطفل يكاد يقع كله فى هذا المستوى بالإضافة إلى المستوى العيانى الحسى.

التفكير المجرد:

هو التفكير الذى يعتمد على معانى الأشياء، وما يقابلها من أفضاظ وأرقام لا على ذواتها المادية المجسمة أو صورها الذهنية، أى هو التفكير الذى يرتفع على مستوى الجزئيات العينية الملموسة والأشياء الخاصة إلى مستوى المعانى والقواعد والمبادئ العامة، كالتفكير فى معنى "المسئولية" أو "الديمقراطية"، وكالتفكير الرياضى والتفكير الفلسفى. ويُلاحظ أن التفكير المجرد لا يستعين ويسترشد بالمعانى وهى فرادى فقط، بل يستعين بها كذلك وقد ائتلفت فى مجموعات مختلفة⁽¹³⁾.

أنواع التفكير:

يمكن تقسيم التفكير حسب الموضوع الذى يدور حوله إلى نوعين :

1 - التفكير الاجترارى Autistic Thinking أو التفكير التخيلى، وهو التفكير غير الموجّه الذى يحدث نتيجة تداعى الأفكار تلقائياً دون وجود هدف محدد يتجه إليه التفكير . كما يحدث فى أحلام اليقظة وفى أثناء التداعى الحر للأفكار، وهذا النوع من النشاط العقلى هو مجرد تعبير عن رغبات أو

حاجات، ولا يعتمد إلا على علاقات بسيطة غير حقيقية، ولا أساس لها في العالم الخارجي غالباً، ولذلك فإن هذا النوع هو أقرب إلى التخيل أو "شروود الذهن" منه إلى التفكير. خذ مثلاً: فتاة كانت تجلس في شرفة منزلها، وإذ بسيارة تسير في الشارع، تتبعث من "مذيعاتها" أغنية لطيفة لمطرب معروف. التقت أذان الفتاة هذه الأغنية، وتباعدت السيارة لدرجة أن الأغنية لم تعد تُسَمَع ، ولكنها ما زالت عالقة بذهن الفتاة، بل إنها تكملها بنفسها، فهذه الأغنية تُذَكِّرُها بحفل زواج، كانت قد دُعِيَتْ إليه، حيث كان يغنى في الحفل هذا المطرب، وغنى هذه الأغنية، وهذا بدوره يُذَكِّرُها بأنها رقصت على أنغام هذه الأغنية. والتقت في تلك الليلة بشاب أُعْجِبَ بها، وحياتها على رقصتها الجميلة، توطدت علاقتها بهذا الشاب، وتذكرت الآن كيف أنه تقدم لخطبتها من أهلها، ووافقت على الخطبة، وهي تتذكر كيف نشبت المشاكل بينها وبين خطيبها... إلخ.

هذا مثال على التسلسل العشوائي للأفكار. وهو ذلك التفكير الاجتراري غير الموجّه .

2 - التفكير الاستدلالي **Reasoning**، وهو التفكير الموجّه الذي ترتبط فيه سلسلة الرموز بطريقة تخضع لضبطنا وتحكمنا بحيث يكون التفكير موجهاً لتحقيق هدف معين أو حل مشكلة معينة. ويمكن أن ننظر إلى التفكير الاستدلالي بوصفه عملية معرفية يتم فيها جمع وتنظيم الخبرات السابقة بطريقة ما تؤدي إلى حل مشكلة جديدة لم يعرف الكائن الحي من قبل حلاً لها. كما يمكننا أن نقسم التفكير الاستدلالي إلى القسمين الآتيين:

أ - التفكير النقدي **Critical Thinking** أو التقويمى، وهو الذي نلجأ إليه عندما نحاول فحص رأى معين فنقرر مدى صحته. وهذا النوع

من التفكير ينتهى بإصدار الأحكام أو الموازنة بين موضوعين أو أكثر للمفاضلة بينهما .

ب - التفكير الإبداعي أو الابتكارى **Creative Thinking**، وهو الذى يستخدم التفكير النقدى لا لمجرد مراجعة رأى معين، بل لإنتاج شىء جديد ذى قيمة، والتفكير الابتكارى يتضمن اختراع شىء يخدم غرضاً معيناً، أو ابتكار شىء جديد فى ميادين الأدب والفن الموسيقى، أو اكتشاف علاقات جديدة أو الوصول إلى حل للمشكلات .

ويختلف التفكير الاستدلالى عن التفكير الاجترارى من عدة أوجه :

1 - إن تسلسل الأفكار فى التفكير الاستدلالى يخضع لضبطنا وتحكمنا - كما سبق أن ذكرنا - بينما يكون تسلسل الأفكار فى التفكير الاجترارى غير خاضع لضبطنا وتحكمنا، وإنما يبدو كأنه يتم بطريقة ما لا يد لنا فيها كما يحدث فى الأحلام وأحلام اليقظة .

2 - يكون التفكير الاستدلالى موجهاً نحو هدف معين كحل مشكلة قائمة . وتحدد طبيعة المشكلة هدف التفكير الاستدلالى، واتجاهه . أما التفكير الاجترارى، كما يحدث فى الأحلام وأحلام اليقظة، فليس له هدف واضح محدد يشعر به الإنسان .

3 - إن التفكير الاستدلالى تفكير واقعى، بينما يميل التفكير الاجترارى إلى الإسراف فى الخيال والبعد عن الواقع .

4 - يتبع التفكير الاستدلالى عادةً خطوات منطقية منظمة، بينما لا يراعى التفكير الاجترارى قواعد المنطق كما يحدث فى الأحلام .

ولعرفة معنى المنطق وعلاقته بالتفكير، سوف نتناول فى الصفحات الآتية بالشرح والتحليل المنطق وعلاقته بفن التفكير .

هوامنن الفصل الثانی

- 1 - ابن منظور، لسان العرب، طبعة مُراجعة ومُصححة بمعرفة نخبة من السادة الأساتذة المتخصصين، الجزء السابع، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص 146.
- 2 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، الجزء الثانی، المطابع الأميرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ص724.
- 3 - د. محمد عثمان نجاتی، علم النفس والحياة، دار القلم، الكويت، 1995، ص 284.
- 4 - المرجع السابق، الموضوع نفسه .
- 5- John, C.S. Kin, The Art of Creative Critical Thinking, University press of America, Inc., Maryland, 1994, p.22.
- 6- Ibid., p. 23.
- 7 - هازلیت (هنرى)، التفكير علم وفن، ترجمة حامد عبدالعزیز العبد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1975، ص 28.
- 8- Kenneth S. Keyes, Jr., How to Develop Your Thinking Ability, McGrawHill Book Company, Inc., New York, 1950, p.39.
- 9- Ibid., p. 40.
- 10- Ibid., p. 40.
- 11- Ibid., p. 41.
- 12- Johnson, Donald M., Systematic Introduction to the Psychology of Thinking, Harper & Row, Publishers, New York, 1972, pp. 14-5.
- 13- French, Joyce N. and Rhoder, Carol, Teaching Thinking Skills - Theory and practice, Garland Publishing, Inc., New York & London, 1992, pp. 12-3.